

## الأدب في العصر الجاهلي

يُعد الأدب في العصر الجاهلي - وبخاصة الشعر - ديوان العرب، وصورة مشرقة حية لهذه الفترة إذ يعتبر سجلاً أميناً لكل مظاهر الحياة بكل صورها، وتاريخياً دقيقاً لأحداث هذا المجتمع وتطوره، وذلك من خلال أسلوب أدبي ولغة أدبية جذابة شائقة مؤثرة ممتعة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الأدب الجاهلي مثل الحياة الجاهلية بكل ألوانها - السياسية والاجتماعية والعقلية، تمثيلاً صادقاً، في صورة ناطقة بأحاسيس ومشاعر الأدياء والشعراء .

### مميزات الأدب الجاهلي:..

بالرجوع إلى الأدب الجاهلي والنظر فيه من ناحية الشكل والمضمون، هما ركنا الأدب وأهم خصائصه - يمكن أن نحصر مميزاتة فيما يلي :

١. المفروض أن الشعر هو الفن الأدبي الأول الذي سيطر على هذه الحياة البدوية ما دام الشعر لغة الطفولة الإنسانية، وأسبق الفنون الأدبية إلى الوجود .

٢. تمتاز العاطفة في الأدب الجاهلي بالصدق، وذلك لما امتاز به الجاهليون من الحرية والاعتزاز بالنفس، فلم يكن هناك ما يدعوا إلى النفاق والمداراة، وقد كان منهم من هجا الملوك والرؤساء وعرض نفسه للهرب أو الهلاك بسبب صراحته وصدق شعوره كطرفه والمتلمس، وإن لم تصل العاطفة إلى ما نطلق عليه الآن " سمو العاطفة " والنزعة الإنسانية العامة، ولعل ذلك نابع من تأثر الأدب في تلك الفترة بالحياة المادية .

٣. ومن ناحية الفكر فإننا نلاحظ أنها ثمرة تجارب شتى ، وأفكار متناثرة تمثل الذكاء وحدة الذهن ، ولا تمثل النظرة الشاملة أو المنطقة المسلسل المستقيم ، وذلك راجع إلى انعدام الحياة العقلية الراقية ، فكان الأدب الجاهلي يقوم على الشعور على هذه التجارب العادية والضروريات الطارئة .

٤. أما الخيال ، فهو الخيال البياني أو التفسيري القائم على الاستعارة والتشبيه والمحايز وما إليها وهذا النوع طبعي ما دام الأديب يتخذ عناصر هذا الخيال من البادية ، فالرجل العظيم فحل ، أو قرم أو حبل ، والناقعة في سرعتها كالحمار الوحشي ، والرجل السريع كالظليم أو الحصان ، والكريم كالبحر والشجاع كالأسد ، والمرأة كالغزل والبقرة الوحشية ، وهكذا يتخذ موضوعاته الوصفية وعناصر الخيالية من الصحراء والسماء والكواكب والحيوان ، فهو أدب حقيقي قلما تجد فيه مبالغة تخالف ظروف العصر وأحواله .

٥. أما من ناحية الأسلوب ، فهو الأسلوب الطبيعي العربي الخالص القائم على قلة الترادف والتكرار ، وعدم الثثرة ، وعدم الاهتمام بالفنون البديعية ، وذلك لقرب اللغة من عهدها الطبيعي اليسير ، وكذلك الميل إلى الإيجار ولاسيما في النثر ، كما كان الأسلوب خاليا من اللحن .

ولسنا ممن يقول بغرابة اللغة الجاهلية أو صعوبة عبارتها ، فذلك يجب أن يقاس بمستوى ومصارف الجاهليين أنفسهم ، وما دام هذا الأدب مفهوماً لديهم يتلقونه ويعارضونه ويتأثرون به ، فهو أدبهم السهل الطبيعي المعروف .

والأدب الجاهلي بهذه الصورة سيظل معيناً لا ينضب للأدباء والدارسين على مر العصور واختلاف الأماكن .

## نونية (المثقب) العبري

هذه القصيدة من بدر " الواقف "

### نص القصيدة :-

١. أفاطم قَبْلَ بينك متعيني  
ومنعك ما سألت كأن تبينى
٢. ولا تعدى مواعد كاذبات  
تمر بها رياح الصيف دوني
٣. فأني لو تخالفني شمالي  
خلافك ما وصلت بها يميني
٤. إذا لقطعتها ولقلت بيني  
كذلك أجتوى من يجتويني
٥. لمن ظعن تطالع من ضبيب  
فما خرجت من الوادي لحين ؟
٦. تبصر هلى ترى ظعناً عجلاً  
بجنب الصحصاحان إلى الوجين ؟
٧. مررن على شراف فذات رَجُلٍ  
ونكبن الذرانح باليمين
٨. وهن كذاك حين فقطعن فلجا  
كأن حدوجهن على سفين
٩. يشبهن السفين وهن بخت  
عراضات الأباهر والشؤون

١٠. وهن على الرجائز واكنات  
قواتل كل أشجع مستكين
١١. كغزلان خذلن بذات ضال  
تتوش الدانيات من الغصون
١٢. ظهرن بكلة وسدلن رقما  
وثقبن الوصاوص للعيون
١٣. أرين محاسناً وكنن أخرى  
من الدياتج والبشر المصون
١٤. ومن ذهب يلوح على تريب  
كلون العاج ليس بذي غضون
١٥. وهن على الظلام مطالبات  
طويلات الذوائب والقرون
١٦. بتلهية أريش بها سهامي  
تيد المرشقات من القطين
١٧. علون رباوة ، وهبطن غيباً  
فلم يرجعن قائللة لحين
١٨. فقلت لبعضهن وشد رحلي  
لهاجرة نصبت لها جبيني
١٩. لعلك إن صرمت الحبل مني  
كذاك اكون مصحبتي قروني

٢٠. فسل الهم هنك بذات لوث  
عذافرة كمطرقة القيون
٢١. بصادقة الوجيف كأن هراً  
يباريها ويأخذ بالوضين
٢٢. كساها تامكا قرداً عليها  
سوداي الرضيخ مع اللجين
٢٣. إذا قلقت شددت لها سنافا  
أمام الزور من قلق الوضين
٢٤. كأن مواقع الثغفات منها  
معرس باكرات الورد جون
٢٥. يجذ تنفس الصعداء منها  
قوى النسع المحرم ذي المتون
٢٦. تصك الجانبين بمشفت  
له صوت أبح من الرنين
٢٧. كأن نفى ما تتفى يداها  
قذاف غريبة بيدي معين
٢٨. تسد بدائم الخطران جثل  
خوايئة فرج مقلات دهين
٢٩. وتسمع للذباب إذا تغنى  
كتغريد الحمام على الوكون

٣٠. وألقيت الزمام لها فنامت  
لعادتها من السدف المبين
٣١. كأن مناخها ملقى لجام  
على معزائها وعلى الوجين
٣٢. كأن الكور والأنساع منها  
على قرواء ماهرة دهين
٣٣. يشق الماء جؤجؤها وتعلو  
غوارب كل ذي حذب بطين
٣٤. غدت قوداء منشقا نساها  
تجاسر بالنخاع وبالوتين
٣٥. إذا ما قمت أرحلها بليل  
تأوه آهة الرجل الحزين
٣٦. تقول إذا دارأت لها وضيني  
أهذا دينه أبداً وديني؟
٣٧. أكل الدهر حل وارتحال  
أما يبقي على وما يقيني؟
٣٨. فأبقى باطلي والجد منها  
كدكان الدارينة المطين
٣٩. تثيت زمامها ووضعت رجلي  
ونمرقة رفدت بها يميني

- ٤٠ . فرحت بها تعارض مسبطرا  
على صحصاحة وعلى المتون
- ٤١ . إلى عمرو ومن عمرو انتني  
أخي النجدات والحلم الرصين
- ٤٢ . فإما أن تكون أخي بحق  
فاعرف منك غثى من سميني
- ٤٣ . وإلا فاطرحنى واتخذني  
عدواً أتقيأك وتتقياني
- ٤٤ . وما أدري إذا يمت وجهها  
اريد الخير أيهما يليني
- ٤٥ . أألخير الذين أنا أبتغيه  
أم الشر الذي هو يبتغيني ؟

#### التعريف بالشاعر (١)

هو عائد بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن نكرة بن عبد القيس بن أسد بن ربيعة ، ولقب بالثقب لبيت قاله هو :

#### ظهن بكلة وسدلن رقما وثقبن الوصاوص للعيون .

لم تجد المصادر الأدبية بشيء يكشف النقاب عن حياة المثقب الأسرية ، وكل ما لدنيا أن أباه - محصن بن ثعلبة - كان رجلاً مرموقاً في قبيلته ، لقب بالمصلح لأنه قام بالمصلح بين قبيلتي بكر وتغلب ، وكذا قبيلتي عوف وعامر ، وفي هذا يقول المثقب :

١- انظر ترجمته في : شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ٥٥٥ ، طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١ / ٢٧١ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٣٩٥ .

أبي أصلح الحيين بكرةً وتغلباً

وقد أرعشت بكر وخف حلومها

وقام بصلح بين عوف وعمار

وخطه فصل ما يعاب زعيمها

ومالدينا أيضاً أن أخته هي ام شاس بن نهار العبدى الشاعر المعروف

باسم الممزق ، أما تاريخ مولده فمجهول وتوفي سنة ( ٥٨٨ م ) .

والمثقب العبدى من شعراء عبد القيس ، وهي إحدى قبائل البحرين التي

دانته بالنصرانية في الجاهلية ، ولذا عده الأب لويس شيخو ضمن

الشعراء النصرانيين في كتابة الشعراء النصرانية في الجاهلية ، ومما

يشير إلى نصرانيته ذكره للفظ الجلالة مرجئاً إليه الثواب والجزاء في قوله :

فجزاه الله من ذي نعمة

وجزاه الله إن عبد كفر

كما جاء مقراً بمشيئة الله بعد تيقنه ، في قوله :

وأيقنت إن شاء الإله بأنه

سبيلغني أجلاها وقصيدتها

ومن أقواله التي نستشف منها لوناً من ديانته ، والتي تومى إلى وجود إله

مدبر ، فتعكس لوناً من نصرانيته :

وما أدري إذا يممت وجهها

أريد الخير أيهما يليني

أأخير الذي أنا ابتغيه

أم الشر هو يبتليني؟

وقد تعددت ألوان الثقافات في شعر المثقب العبدى ، وإن في معظمها مستمدة من البيئة المحيطة به ، والأفكار السائدة فيها .  
**ومن أهم مظاهرها** تلك الثقافة اللغوية التي تجلت في اتساع لغته الشعرية وتعدد مرادفاتنا بصورة بينه تمكنه من اختيار اللفظ المناسب للمعنى المراد ، فجاءت ألفاظه دقيقة في مدلولاتها .

كما اتسمت ثقافة المثقب ببعض السمات الحضرية ، ولعله اكتسبها من بيئته - البحرين لوقعها في كنف مملكة الحيرة ، والاحتكاك بها ، هذا بالإضافة إلى ما للبحرين من سمات حضرية نتيجة لوقعها على شاطئ الخليج العربي ، مما سهل لها حياة الاستقرار ، وفتح أمامها أبواب الرزق كالزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والصيد ، فبدا طبيعياً أن تتسم الحياة في البحرين بالسمة الحضري ، والتي أثرت بدورها في ثقافة المثقب .

وكما تأثرت ثقافة المثقب العبدى بالبيئة المحيطة به بدت كذلك متأثرة بالمعتقدات السائدة فيها آنذاك ، فبدا أثرها واضحاً جلياً في شعره .

هذا وقد جاءت أشعار المثقب خير شاهد على طيب عنصره وسمو خلقه ، ومن أشعاره التي تؤكد ذلك قوله :

أجعل المال لعرضي جنة

إن خير المال ما أدى الذم

ومن أشعاره التي تشير إلى عزة نفسه وأنفته ، قوله :

أنا بيتي من معد في الذرى

ولي الهامة والفرع الشم

وكذلك يتعفف عن الغيبة والفحش ، إذ يقول :

لا تراني راتعا في مجلس

في لحوم الناس كالسبع الضرم

وكلام سيء قد وقرت

عنه اذناى وما بي من صمم

ومن أقواله التي تدل على تسامحه وصفحه عند الإساءة إليه :

ولبعض اصفح والإغراض عن

ذي الخنا أبقى وإن كان ظلم

وقد تأثر بشعر المثقوب عديد من الشعراء المعاصرين له واللاحقين به

ومن هؤلاء : الطرماح ، والشماخ بن ضرار ، والنابعة الذبياني .

## اللغة والمعاني :

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنعك ما سألت كأن تبيني

ولا تعدي مواعد كاذبات

تمر بها رياح الصيف دوني

فإني لو تخالفني شمالي

خلافك ما وصلت بها يميني

إذا لقطعتها ولقلت بيني

كذلك أجتوى من يجتويني

## اللغة :

**أفاطم** : أراد أفاطمة ، فقطع آخر الأسم وهو الترخيم .

**البين** : البعد والفراق . **متعيني** : يريد متعيني بوصلك .

**ومنحك ما سألت** : أي منحك لوصلي . **كان تبيني** : أي كمفارتقتك عندي .

**تمر بها** : تذهب بها وتفرقها في كل وجه . وخص رياح الصيف دون سائر الأزمنة ،

لأن الخير يقل فيها ويكثر غبارها ولا يجلب مطراً .

وقال الأستاذ " محمود شاکر " إنما عنى بريح الصيف مما يثور بينه وبينها

من الخلاف والعناد واليأس ، وكل ما يذهب بالمودة ويعصف بالمواعيد .

**بينى** : ابتعدي . **الاطواء** : الكراهة والاستئقال .

## المعنى :

افتتح الشاعر قصيدته بخطاب مباشر إلى صاحبتة - فاطمة - يستنكر فيه

عزمها على الفرقة والارتحال ، ويأمرها بأن تتمهل في فراقها حتى تصله كسابق

عهدا ، وأن تلتزم في وعودها دون خداع أو مواربة ، وإلا فلن يشفع لخداعها

مكانها في قلبه مهما تعاضم قدرة ، فلو أبي عزيز ، تأبى عليه نفسه أن يرتضي

الخنوع والاستسلام لنداء قلبه ، فلو قدر لشماله أن تخالف يمينه على شاكلة

صاحبتة لقطعها دون تردد أو تريث ملوحاً بها بعيداً عنه ، فلا حاجة به لمن رغب

عنه وأحب مفارقتة .

لمن ظعن تطالع من ضبيب

فما خرجت من الوادي لحين

مررن على شراف فذات رجل  
ونكبن الذرانح باليمين  
وهن كذاك حين قطعن فلجا  
كأن حدوجهن على سفين  
يشبهن السفين وهن بخت  
عراضات الأباهر والشؤون

### اللغة :

- ضبيب** : أسم مكان .  
**ذات رجل** : موضع .  
**الذرانح** : جمع ذرنحة . وهي الأكمة دون الهضبة ، وهو هنا موضع معروف بين كاظمة والبحرين .  
**نكبن** : عدلن عنه .  
**ومعنى كذاك** : أي حالتها الأولى يوم قطعن فلجاً ، وكأن حمواهن على سفين .  
**السفين** : جمع سفينة .  
**العراض** : العريض المفرط .  
**الأباهر** : الظهور ، وأصل الأباهر عرق في الظهر .  
**الشؤون** : جمع شأن ، وهي شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين .

### المعني :

ويحاول الشاعر أن يضيف صبغة واقعية على تجربته بتحديدته للأماكن التي مربها موكب صاحبه عند الارتحال ، من ضبيب ، والصحسان ، والوجين ، وشراف ، وذات رجل ، والذرانح ، وقد عمد الشاعر إلى ذكر هذه الأماكن لتحري

الدقة في وصفه للطريق ، كما أنها تحقق له المتعة واللذة بذكرها وتساعده على استحضر عناصر تجربته في جميع صورها ، هذا بالإضافة إلى كونها علامات على الطريق ترشد من ضل طريقة في البيداء.

ثم انتقل بعد ذلك إلى لقطة أخرى يشبه فيها إبل الموكب في ضخامتها وسرعة سيرها بانسياب السفن في الماء ، فهي طويلة ، عريضة الظهر ، تتمايل في سيرها كتمايل السفن في الماء .

وهن على الرجائز واكنات

قواتل كل أشجع مستكين

كغزلان خذلن بذات ضال

تنوش الدانيات من الغصون

ظهرن بكاة وسدلى رقما

وثقبن الوصاوص للعيون

أرين محاسناً وكنن أخرى

من البياج والبشر المصون

ومن ذهب يلوح على تريب

كلون العاج ليس بذى غضون

وهن على الظلام مطالبات

طويلات الذوائب والقرون

بتلهية أريش بها سهامي

تبذ المرشقات من القطين

## اللغة :

**الرجائز** : مراكب النساء ، جمع رجازة ، وهي أصغر من الهودج . واكنات

جلسات مطمئنات .

وقوله " قواتل كل أشجع ، أي كل رجل أشجع في نفسه مستكين لهن .

**والاستكانة** : الخضوع . **خذلن** : جنح .

**ذات ضال** : أسم موضع . **تنوش** : تقطف .

**الكلية** : غطاء يفرش على الهودج .

**الرقم** : البرود ، أو ضرب مخطط من الوشي .

**الوصاوص** : البراقع .

**البشر المصون** : بعض بشرتها كاليد وبعض الوجه ، وما لا ريبة في إظهاره ،

وسترن ما عدا ذلك .

**التريب** : جمع تربية ، وتجمع على ترائب ، وهي عظام الصدر موضع القلادة .

**الغضون** : تثنى الجلد .

**على الظلام** : أي على ظلمهن . **مطلوبات** : مطلوبات لفرط جملهن .

**الذوائب** : ضفائر الشعر المسترسلة على الظهر .

**القرون** : خصلة من الشعر بجوار الأذن .

**تلهية** : تفعلة من اللهو ، أي نصب الحباله لهن ، ونعد سهام اللهو فنرصد

لصيدهن . **تبيذ** : تسبق .

**المرشقات** : الحديدات النظر ، وقيل لا يكون الارشاق إلا بمد العنق .

**القطيين** : الخدم ، والجيران ، والتباع .

## المعنى :

ثم انتقل شاعرنا إلى وصف جمال محبوبته ، وهي في معية صوحيباتها - حتى لا يظهر صورتها كاملة أمام السامعين ، متبعاً في ذلك تقاليد البادية العربية في ضرورة الحفاظ على المرأة وصونها فأشاد بفرط جمالهن حتى استطعن أن يقتلن بسهام نظراتهن كل شجاع في استكانة ويسر، حتى لا يملك من أمر نفسه إلى أن يستكين ويخضع لسلطان جمالهن ، والذي رحن يكشف عن بعضه من البشرة الملتفة في أبهى ثياب من الديباج والحزير، والصدور البيضاء التي تشبه العاج في بياضه وإشراقه، مما مكنهن من استلاب قلوب الرجال في خفة ورشاقة كغزلان تتهاوى في رياض يانعة يقطفن من ثمار غصونها الدانية، وهن على ظلمهن للرجال مطلوبات لفرط جمالهن ، فهن طويلات الذوائب والقرون ، ولذلك يحتال لهن الرجال ويعدون لهن سهام الصيد ليفوزوا بونهن ويلهوا بوصلهن .

علون رباوة ، وهبطن غيبا  
 فلم يرجعن قائلة لحين  
 فقلت لبعضهن وشد رحلى  
 لهاجرة نصبت لها جبيني  
 لعلك إن صرمت الحبل منى  
 كذاك أكون مصحبتى قروني

## اللغة :

**الرباوة :** ما ارتفع من الأرض .

**الغيب :** ما أطمأن من الأرض . فغاب عنك ما فيه . فلم يرجعن قائلة .

**لحين :** أي مستمرات في السير، ولم يملن إلى قيلولة .

**العاجرة :** نصف النهار عند اشتداد الشمس ، وقوله لهاجرة أي من أجلها ،

وسميت هاجرة لأن السير يهجر فيها .

**نصبت لها جيبني :** أي وطنت نفسي على ركوبها .

**وقوله صرمت الحبل مني :** يكي به عن هجرها له وقطعها لوصله .

**مصحبتي : تابعتي : يقال :** ضربت البعير حتى أصحب أي تبع وانقاد .

**قرونه :** نفسه وموضع ، مصحبتى مبتدأ وقورني خبرة ، والجملة تفسير لقوله .

**كذاك :** وكذاك خير أكون ، والجملة تترجم عن جواب الشرط .

## المعنى :

ويعاود الشاعر تتبعه لموكب صاحبتة في عزيمة وإصرار يتزيد من حميتها ما يمكنه من تحمل ويلات الطريق ووعثاونة ، وحرارة الهاجرة ولهبها ، فيعقبه عن حرص وكتب في صعوده وهبوطه ، ثم يقدم - هذه المرة - في جرأة على مخاطبة صاحبتة مباشرة محذراً لها ألا تتصرف عنه في وصلها وودها ، وإلا نالت منه مثل فعلتها فينصرف إلى نفسه ويصحبها بدلاً منها .

وهذا النهج وإن كان في ظاهرة يبدو مخالفاً لما يجب أن يكون عليه المحب مع محبوبته من التهاك والصبابة إلا أنه يتواءم مع حمية الجاهلي وصبوته واعتزازه بنفسه عند احتكاكه بما يؤله ويثير صبوته وبخاصة إذا كان في مقام الفخر كشان شاعرنا ، وإلى هذا المعنى أشار الدكتور / محمد أبو موسى في قوله : " وهذا الضرب من العزّ الذي ترى حوله أنغام الاعتزّز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس الممتازة هو الشبه بالشخصية العربية ، والإنسان العربي في هذه

الحقبة من تاريخه وأن الصبوة وإنما تثير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب " (١)

ولعل الشاعر يرمز بصعود الموكب وارتحاله إلى مواقع تجربته مع صاحبه وما يتخللها من شذوب في العاطفة وهدوء يعقبه .

فسل الهم عنك بذات لوث

عذافرة كمطرقة القيون

بصادقة الوجيف كأن هراً

يباريها ويأخذ بالوضين

كساها تامكا قردا عليها

سوادى الرضيخ مع الوجين

إذا قلقت شددت لها سنافا

أمام الزور من قلق الوضين

كأن مواقع الثغفات منها

معرس باكرات الورد جون

## اللغة :

**الهم :** الحزن ، وهو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل.

**ناقة ذات لوث :** أي ذات قوة ، وقيل كثيرة اللحم ، واللوث من الأضداد بمعنى القوة والضعف .

**العذافرة :** الشديدة القوية . **القيون :** جمع قين وهو الحداد .

**الوجيف :** السير السرى .

١- قراءة في الأدب القديم د . محمد أبو موسى ص ٧٣ الطبعة الأولى دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٧٨ م .

**وقوله :** بصادقة الوجيف بدل من قوله : بذات لوث .

**يباريها :** يريد به ينافسها ويخدشها . **الوضين :** حزام الرجل .

**التامك :** السنام المشرف . **القرد :** المجتمع الصلب .

**السوادى :** يريد علف السواد وهو القت والنوى ، ونسبة إلى السواد لأنه علف الأمصار لا البدو .

**الرضيخ :** المدقوق من النوى .

**اللجين :** ما تلجن ولزق بعضه ببعض ، يريد أنها علفت حتى سمنت ، وركبها سنام مشرف .

**السناف :** خيط أو حبل رقيق يشد من اللبب إلى الوضين لضمر البعير .

**الزور :** الصدر ، أو العظم الذي في وسط الصدر .

**الثقات :** ما مس الأرض من يديها ورجليها ومقدمة صدرها عند البروك ، وهن خمس .

**المعرس :** موضع التعريس ، والتعريس هو النزول آخر الليل . أو أوله .

**باكرات الورد :** أي مبكرات إلى الماء ، ويعني هنا القطا ، وهي طائر في حجم الحمام .

**جون :** سود ، وخص القطا الجوني للطاقته .

## المعنى :

ثم يتخلص الشاعر من حديثه عن صاحبه إلى وصف ناقته التي امتطأها صحرائه - حتى ينفس عما احتشد في صدره من لهيب الوجد والصبابة - فراح يمعن في وصف شدتها وقوتها، فهي ناقه قوية شديدة تشبه في صلابتها مطرقة الحدادين ، كما أنها تسرع في عدوها وكأن هرا بجانبها ينهشها بأنيابه ومخالبه ،

فتجد في عدوها وانطلاقها حتى تتقى مخالبه وأنيابه، ولم لا وهي ناقة قوية البنيان علفت حتى سمت وعتلاها سنام مشرف، قد يسبب قلقا لاستواء الرجل على ظهرها فيشد له حبل لتثبته، وقد بلغت من قوتها وضخامتها أنها تترك أثراً لبريكها على الأرض تشبه اثار أفراخ القطا عند هبوطها عند موردها بكورا .

يجذ تنفس الصعداء منها  
قوى النسع المحرم ذي المتون  
تصاك الجانبين بمشفتر  
له صوت ابح من الرنين  
كأن نفى ما تنفى يداها  
قذاف غريبة بيدي معين  
تسد بدائم الخطران جثل  
خوايصة فرج مقلات دهين  
وتسمع للذباب إذا تغنى  
كتغريد الحمام على الوكون

## اللغة :

**يجذ :** يقطع . **تنفس الصعداء :** يعني به هواء زفيرها عند التنفس .

**النسع :** حبل يشد به الرجل يمتد على وسط الناقة .

**المحرم :** الذي لم يدبغ ولم يلين . **القوى :** الطاقات .

**ذو المتون :** نوالقوى، والمعنى أنها إذا زفرت قطعت النسع بتنفسها لأنها

شديدة عظيمة الوسط .

**تصك** : تزج أو ترمي .

**المشفت** : المتفرق ، ويعني به هنا المتفرق من الحصى .

**البحنة** : صوت فيه غلظة . **المعين** : الأجير .

**الغريبة** : الرحي . **ونفيها** : ما تطحنه وتقذف به .

**دائم الخطران** : ذنبها . **خطراته** : حركته .

**الخواية** : الفرجة . **الجل** : الكثير الشعر .

**المقات** : التي لا يبقى لها ولد . **الدهين** : القليلة اللبن

**الذباب** : أراد به هنا حد نايها إذا صرفت بأنيابها .

**التغريد** : التطريب . **الكون** : جمع وكن . وهو عش الطائر .

## المعنى :

ويستمر الشاعر في وصف قوة ناقته وضخامتها ، فهي ناقه قوية تقطع سير  
الرحل المتين إذا ما تنفست حتى أنها لترمي بالحصى - من فرط سرعتها -  
في سيرها فتقذف به جانبيها بشدة ، فتسمع له صوتاً أشد من الرنين يشبه صوت  
النوى المقذوف من بين شقي رحي سريعة الدوران ، كما أنها تمتلك ذنباً سميكاً  
دائم الخطران تسد به ما بين قوائمها ، وتسمع لأنيابها إذا ما صرفت بها صوتاً  
يشبه تغريد الحمام على الكون .

فألقيت الزمام لها فنامت

لعادتها من السدف المبين

كان مناخها ملقى لجام

على معزائها وعلى الوجين

كأن الكور والأنساع منها  
على قرواء ماهرة دهين  
يشق الماء جؤجؤها وتعلو  
غوارب كل ذي حدب بطين  
غدت قوداء منشقاً نساها  
تجاسر بالنخاع وبالوتين

## اللغة :

**السدف** : الليل ، والسدف النهار ، ويريد به هنا الضوء .

**الميين** : الدين **العادة** : النزول من وقت السحرفي مثل ذلك الوقت

**المعزاء** : الموضع الكثير الحصى .

**الوجين** : ما غط من الأرض وارتفع ، فشبهه مواقع ثفنتها بمواقع أشلاء

للجام إذا ألقى **الكور** : الرجل .

**النساع** : جمع نسع ، وهو سير تشد به الرحال .

**قرواء** : سفينة طويلة . **ماهرة** : سابحة .

**دهين** : مدهونة . **الجؤجؤ** : الصدر .

**الغوارب** : الأمواج . **الحدب** : الموج المرتفع .

**البطين** : الواسع البعيد . **القوداء** : الطويلة العنق .

**وأراد بالنسا** : موضع النسا، وإذا سمنت الناقة انشقت للحمتان في

الفخذين فجرى النسا بينهما واستبان .

**النخاع** : خيط ممتد أبيض في الصلب .

## المعنى :

ويواصل الشاعر وصف ناقته وضخامة بنيانها ، فهي ناقّة صلبة شديدة المراس يواصل ترحاله عليها ليل نهار ، حتى أنها لا تهجع لنومها إلا في نهاية الليل بعد طول عناء ومشقة ، فتترك أثرا لمواقع برئكها يشبه مواقع أشلاء لجام ألقى على الأرض ، وهي في ضخامتها وعنفوانها تشبه سفينة تتهادى فوق المياه بعد أن تشق بصدرها الأمواج المتلاطمة ، ولا غر في هذا فهي ناقّة قوية علفت حتى اكتملت لها رؤا فد القوة والنشاط من السمنة وسرعة العدو .

إذا ما قمت أرحاها بليل

تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني

أهـذا دينه ودينـي

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقى على وما يقيني؟!

## اللغة :

**أرحطه :** أجعل عليه الرجل واشد عليه أدواته .

**التأوه :** الوجع . **دراته :** مددته وشددت به رحلها .

**الوضين :** حزام الرجل . **دينه :** عادته ودأبه .

**يقيني :** يحفظني ويصونني .

## المعنى :

ويتمادى المثقب في وصف ناقته حتى يتغلغل إلى أعماقها ، فيترجم لنا عما يجول بخاطرهما - إن قدر لها أن تتكلم - فهي تتأوه منه حزناً عندما يعدها للرحيل ليلاً ، تفضى عما في قلبها من شكوى قائلة : إلى متى يستمر في حلة وترحاله ، أما يحرص على ويقيني من هذا الهلاك !؟

ولعل المثقب هنا أراد التنفيس عما احتدم في صدره من مشاعر الضيق والملل ، فعبر عنها بلغة شعرية وأعارها لسان ناقته ، فجاءت مصبوغة بصبغة النفسية .

فأبقى باطلى والجد منها

كدكان الداربنة المطين

ثبتت زمامها ووضعت رحلي

ونمرقه رفدت بها يميني

فرحت بها تعارض مسبطراً

على صحصاحة وعلى المتون

## اللغة :

**باخلي :** أي ركوبي لها في طلب اللهو والغزل .

**الجد :** انكماشها في السير . ودكان الداربنة دكان البوابين ، الواحد دربان ، وهو فارسي معرب .

**المطين :** من طنته أطينه . وموضع الكاف من قوله : كدكان مفعول به أي مثل دكان .

**نمرقة :** وسادة اعتمدت عليها . **تعرض :** تبارى وتحاكى .

**مسبطرا :** أي طريقا ممتداً . **الصحصاح :** المستوى من الأرض .

**المتون :** جمع متن ، وهو الصلب من الأرض .

## المعنى :

ويوصل شاعرنا وصفة لقوة ناقته - من زاوية جديدة - فيصرح بصلاية ناقته وشدتها بعد مرورها بكل هذا المصاعب والمهالك التي لم تستطيع النيل من قدرتها بل بقيت على قوتها وضخامتها كأنها بناء ضخم مطين يشبه مقعد البوابين، وفرط قوتها ونشاطها راح يستأنف عليها ترحالة يعارض بها أعتى السبل وأصعبها في مختلف ألوانها .

إلى عمرو ومن عمرو أئتني

أخي النجدات والحلم الرصين

فإما أن تكون أخي بحق

فاعرف منك غثى من سميني

والأفاطر حنى واتخذني

عدوا أتقيأك وتتقينى

## اللغة :

**عمرو :** هو عمر بن هند ، وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي ، وأبوه

المنذر بن امرئ القيس اللخمي .

**ومعناه :** قصدت بناقتي عمرا ومن عنده أئتني النجدات .

**فاعرف منك غثى من سميني :** أي فاعرف نصحك من غشك .

**اخزني :** اتركني .

## المعنى :

وبعد أن انتهى الشاعر من نسيبه بمحبوبته ، ووصفه لناقته ورحلته عليها ،  
مظهراً لصاحبه - فاطمة - قوة مراسه ، ونبل خصاله ، وسمومكاته ، التفت -  
بعد اربعين بيتاً - مادحاً لعمري بن هند من قبيل الفخر بصلته به ، باعتباره ركن  
تكتمل به عناصر فحولته وعزته وريافد إبانته وشممه ، حتى يكشف لصاحبه أنه  
يتمتع بمكانة تجعله خليقاً بحبها فتعاوده بوصلها من جديد ، فها هو ذا يقول  
مخاطباً عمري بن هند : إن لم تكن الأخوة بيننا على ما بينته وحدته ، فانفض  
يدك مما بيني وبينك ، واتخذني عدواً لك احتز منك وتحترز أنت مني ، وينطوي كل  
منا على ضغن صاحبه والحذر من شره .

وما أدري إذا يممت وجهها

أريد الخير أيهما يليني

أأخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني

## اللغة :

اكتفى الشاعر بذكر أحد الأمرين - في البيت الأول - وهو الخير ، اعتماداً  
على ما يجيء بعده - في البيت الثاني - من التصريح بالأمر الثاني وهو الشر .

## المعنى :

ويختتم الشاعر قصيدته بحكمة أبدية راسخة يكشف فيها عن جهل  
الإنسان بما تضره له الأقدار فعلى المرء أم يسعى لبغيته دون اكتراث بنتائج  
سعيه ، فهي متروكة لما قدر له .

## التحليل والتعليق :

تعد نونية المثقب من أشهر قصائده الشعرية ، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً ، تجلت فيها موهبة المثقب الفنية ، وعدد فيها من موضوعاته الشعرية كالنسيب ، والوصف ، والفخر ، والحكمة ، في تجاور محكم ، وبناء متكامل ، فجاءت قصيدته متلاحمة متماسكة ، تمثل قيمة فنية أصيلة ، ولذا حظيت بتعليقات كثيرة من النقاد ، حتى ورد ذكرها في أكثر من أربعين مصدراً ، وصدق " أبو عمرو بن العلاء " حين قال : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " (١)

### ١ . غرض القصيدة

ومن أهم النقاط التي وقف النقاد بصددها في هذه القصيدة ، الغرض المنشود منها ، أو الهدف الذي يبتغيه الشاعر من نظمها ، واخبرنا شراح الشعر الجاهلي مرة بعد مرة أن المدح هو الغرض الحقيقي لهذه القصيدة ، وأن مطلعها الغزلي ، ووصف الضعن والطاعنات ، ووصف الناقة أيضاً ، وما ختمت به القصيدة إن هي إلا مقدمات للغرض الأصلي وتعليقات عليه (٢) .

ويشير الدكتور طه حسين إلى أن الغرض الأصلي من نظمها هو العتاب ، إذ يقول : " وشاعرنا يطيل شيئاً في غزله وعتاب صاحبه ووصف الطعائن ، وهو يطيل كذلك في وصف ناقته والفلاة ، فإذا انتهى إلى صاحبه الذي يريد أن يعاتبه لم يطل في العتاب ، وإنما انقطع حديثه فجأة " (٣) .

١- الشعر والشعراء ١ / ٣٩٥ .

٢- انظر قراءة الشعر ١ / ٢٤٢ .

٣- حديث الأربعاء ١ / ١٦٦ .

على حين يشير الدكتور الربيعي إلى وصف الناقة هو العرض المنشود مبينا " أن الناقة - دون سواها - تبقى هنا محور العمل الشعري، ويبقى كل شيء عداها على هامش هذا العمل " (١).

والموقع أن الغرض الحقيقي من هذه القصيدة هو الفخر، فلونظرنا بعمق إلى جميع موضوعاتها لوجدناها تتسم بالفخر، فالشاعر يهدف من وراء فخره؛ هذا إلى أن يثبت لمحبوبته " فاطمة " أنه يتمتع بمكانة عالية، وخصال نبيلة، تجعله خلقياً بحبها، فتعاوده بوصلها وودها بعد قطعها عنه.

والمثقب في نونيته جاء مخاطباً لعمرو بن هند في ثلاثة أبيات تعلوها نبرة عالية من العزة والكبرياء، يقول فيها: (٢).

إلى عمرو ومن عمرو أنتتى  
أخى النجدات والحلم الرصين  
فإما أن تكون أخى بحق  
فاعرف منك غثى من سمينى  
وإلا فاطر حنى واتخذني  
عدواً أتقيك وتتقيني

واختلف النقاد حول هذه الأبيات نتيجة لتلك اللهجة العالية التي تكتنفها، والتي لا تتفق في طبيعتها مع مخاطبة الملوك فهل المراد منها عمرو بن هند " الملك " أم عمرو غيره؟

١- قراءة الشعر ص ٢٦٢ .

٢- الديوان ص ٢٠٨ - ٢١٢ .

ومن هذا المنطلق أعلن الأصمعي " عن تشككه في أن المخاطب فيها عمر بن هند " الملك " قائلاً :

" أراه غير الملك ، لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام " (١).

كما أشار الأستاذ حسن كامل الصيرفي إلى تشككه في ترتيب هذه الأبيات بقوله : " ربما كانت الأبيات الواردة بعد البيت الأول - وهي التي شككت الأصمعي بلهجتها في أن يكون المخاطب هنا هو عمر الملك - متأخرة عن موضعها لا سيما وأن ابياتاً أخرى من هذه القصيدة قد جرى التقديم والتأخير فيها أو أنه كان يوجه القصيدة إلى واحد من أهله وعشيرته ، ثم يقول له إنه تارك له بلاده ليذهب إلى حيث يقيم الملك " (٢).

على حين يلمح الدكتور طه حسين إلى أن هذه القصيدة قد اقتضبت اقتضاباً وضاع منها جزء غير قليل ، واعتمد في هذا على أن المثقب أطال في نسبه وعتاب صاحبه ، ووصف الطعائن والناقاة ، فإذا ما انتهى إلى صاحبه - عمر بن هند - والحديث إليه لم يطل ، وانقطع حديثه فجأة (٣).

والحق أن المثقب في خطابه لعمر بن هند - الملك - يريد أن يظهر لمحبوبته مدى ما يتمتع به من مكانه ، تمكنه من مخاطبة الملوك بهذه اللهجة التي تعلوها الندية وعزة النفس ، فيقع هذا من قبلها حسناً يسمح له بمعاودة وصلها من جديد .

١- شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ١٠٣٥ .

٢- ديوان المثقب تحقيق أ / حسن كامل الصيرفي ص ٢٠٩ .

٣- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٦٦ .

ومن ثم فالمثقب لم يهدف في نونيته إلى مدح عمرو بن هند ، وإنما عرض له من قبيل الفخر بنفسه ، باعتباره موقفاً يثبت من خلاله مدى قدره ومنزته ، فجاء حديثه إليه موجزاً لم يطل فيه ، ولم يقتضب كما ذهب الدكتور طه حسين . وهكذا حرص المثقب على الفخر في نونيته ، فجاءت موضوعاتها ملائمة لفخره حتى في نسيبه بمحبوبته " فاطمة " جاء متمسكاً بعزته ومعلنأً لكبريائه قائلاً لها : (١) .

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنعك ما سألت كأن تبيني

ولا تعدى مواعد كاذبات

تمر بها رياح الصيف دوني

فإني لو تخالفني شمالي

خلافك ما وصلت بها يميني

والمثقب بهذه اللهجة العاتية التي يخاطب بها محبوبته ، والتي يكشف من خلالها عن كبريائه وعزته في حبه ، جاء مخالفاً لعادة الشعراء في نسيبهم بصوحيباتهم ، إذ كانوا يتهاكون في صبوتهم ، ويتخاذلون من غلبة الوجد على قلوبهم المستعرة ، وهذا مسلك شائع عندهم ، حتى غداً دليلاً على إجادتهم في أشعارهم ونبه إليه القدماء في قولهم " يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقعة أكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون من الإباء والعزة وأن يكون

١- الديوان ص ١٣٦ - ١٣٩ .

جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض (١) .

ومن هذا المنطلق انتقد الأستاذ عبد العظيم قناوي ، قول المثقب الذي يحذر فيه صاحبتة من قطعها لوصله ووده .

لعلك إن صرمت الحبل مني

كذاك اكون مصحبتي قروني (٢) .

وعلق عليه قائلاً " وإذا كان هنا ما يمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطعية إن صرمت حبله ، فالعاشق لا يملك زمام قلبه ، ولا يدفع جماح نفسه " (٣) .  
والواقع أن المثقب في نسيبه لم يسلك هذا المسلك الشائع ، وإنما سلك ضرباً من الشعور الصادق والعميق بالصبو والشوق ، فالشاعر بعد أن قطعت عنه صاحبتة ودها ، وبعد أن علاه الشوق أثار هذا الشعور في نفسه إحساساً بالشباب والقوة والكبرياء ، فراح يغنيها شعوره بالبطولة والأنفة والفعال الحميدة التي يتحلى بها ، والتي تجعله أهلاً لوصلها ، فتعاوده به " وهذا الضرب من الغزل الذي ترى حوله أنغام الاعتزّز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس الممتازة هو الأشبه بالشخصية العربية والإنسان العربي في هذه الحقبة من تاريخه ، وأن الصبوة إنما تثير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب والفتوة والفرسية " (٤) .

١- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق د / محمد خفاجي ص ١٣٤ .

٢- صرمت : قطعت ، الحبل : العهد والورد . قروني : نفسي ( الديوان ص ١٦٤ ) .

٣- الوصف في العصر الجاهلي ص ٣٢١ .

٤- قراءة في الأدب القديم د / محمد أبو موسى ص ٧٣ .

ويلمح الدكتور " الربيعي " إلى هذا الضرب من السلوك في تساؤله عن المعنى من أن يعلن المثقب العبدى غضبه على فاطمة ، وعلى مثيلة لها في مقطع تال ، ويتساءل ذلك التساؤل الملى بالمعنى بعد ذكر الملك عمرو بن هند مباشرة ، ثم لا يحدث ذلك مع الناقاة ، رغم أنه خلع عليها صفات البشر وجعلها تشكو وتبرح كما يفعل الإنسان ؟ <sup>(١)</sup> .

وحول الدكتور " طه حسين " أن يجد حلاً لهذا التساؤل بتحليل راح فيه إلى أن " الشاعر أنشأ قصيدته في العتاب ، وهو يفكر من غير شك في صاحبه الذي سيعاتبه حين ينتهي إليه أكثر مما يفكر في صاحبه التي يطلب إليها المتاع فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة الغليظة القاسيقة ووجه إليها هذا النذير الخشن الغليظ ، فهو خليق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازماً ومتشديداً قاطعاً ، لا يحب الهوادة ولا اللين " <sup>(٢)</sup> .

والصواب أن المثقب جاء بتلك اللهجة العالية في خطاب لمحبوته " فاطمة " وكذلك في مخاطبته لعمرو بن هند ، من قبيل الفخر والاعتزاز بنفسه وكبريائه فحسب ، وليس من قبيل الغضب - كما ذهب الدكتور الربيعي - بدليل أن المحرك لهذا الفخر هو حبة لفاطمة ، فهو يهدف من وراء فخره إلى وصلها من جديد .

ولم يفعل ذلك مع ناقته من قبيل حبه لها وإجلاله لمكانتها ، فالناقاة في نظر الجاهلي قادرة على كل شيء فهي تعين على قطع القفار الموحشة ، وإليها يرجع الفضل في انتشار الشاعر من همومه وأحزانه ، وحمايته من مخاطر الصحراء .

١- انظر : قراءة الشعر ص ٢٦٢ .

٢- انظر : قراءة الشعر ص ٢٦٢ .

ولعل كل هذه التساؤلات من النقاد ترجع في أصلها إلى عدم وقوفهم على الغرض الحقيقي من نظم النونية وهو الفخر.

## ٢ . النحل في شعره :

ومن أهم القضايا التي أثّرت حول شعر المثقب العبدى - وبخاصة في نونيته - قضية الوضع أو النحل ، ويعد الدكتور طه حسين " من أبرز من تعرضوا لشعر المثقب من هذه الناحية ، وذهب الدكتور في اتهامه لشعر المثقب بالوضع أو النحل إلى أمرين :

عدم وضوح شخصية المثقب في شعره ، وأشار إلى هذا خطابه لمحدثه قائلاً :  
 " ما رأيك في صوت تحمله القرن الطوال حتى تنتهي به إليك وحتى تنتهي به إلى مَنْ بعدك من الأجيال ؟ وأنت تسمع الصوت وتبين جرسه ونغمه ، وتتبعه مترجعا مع هذه القرن ، حتى إذا انهيت إلى آخرها أو إلى أولها ، لا تجد شخصا بينا ، وإنما وجدت شخصا شائعا ، ويعجبني الشعر الذي لا تستطيع أن تنهي به إلى شاعر معروف واضح الخصال ، بيّن الشخصية ، يعجبني لأن فيه عظمة تأتيه من هذا القدم الذي يخفي علينا مصدره إخفاء " (١) .

والواقع أن شخصية الشاعر في شعره تتكشف من ناحيتين ، الناحية الأخلاقية وتمثل في أفكاره ومعتقداته وخصاله الخلقية ، والناحية الفنية ، وتمثل في الخصائص الفنية المميزة لشعره ، والتي يختص بها عن غيره من الشعراء .

ويلمح ابن رشيقي في حديثه عن حقيقة الشاعر إلى مقومات الشخصية ، قائلاً : " وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند

١ - حديث الأربعاء ١ / ١٦٤ - ١٦٥ .

الشاعر توأيد معنى ولا اختراعاً ، أو استطراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غير؛ من المعاني ، أو نقص أطاله سواء من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير " (١) .

والحق أن شخصية المثقب العبدى تبدو واضحة جلية في جميع أشعاره وترسم ملامحها من خلال أشعاره كما يلي :

فها هو ذا يخاطب محبوبته فاطمة بلهجة عالية : بعيدة عن الذل والهوان  
مبين عزته وكبرياء في حبه :

فإني لو تخالفني شمالي  
خلافك ما وصلت بها يميني  
إذا لقطعتها ولقلت بيني  
كذلك أجتوى من يجتويني  
وهو القائل في خطابه لعمر بن هند مبينا منزلته ومكانته :  
إلى عمرو ومن عمرو انتني  
أخي النجدات والحلم الرصين  
فإما أن تكون أخي بحق  
فاعرف منك غثى من سميني  
وإلا فاطر حتى واتخذني  
عدواً أتقيناك وتتقيني

١- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

وأشاد الدكتور طه حسين نفسه بهذه البيات ، مبيناً أن الناس حفظتها لأنها راعتهم وأعجبتهم حقاً " (١) .

ولعلها راعتهم وأعجبتهم من قبيل مخالفتها لعادة الشعراء عند مخاطبة الملوك فالمثقب هنا يظهر جرأته وشجاعته في مخاطبته لعمرى بن هند ، ولم يستعطفه أو يمدحه طمعا في عطاياه ، وهذا ما لم يكن معهودا لديهم .

وهو القائل على لسان ناقته مبينا صدق إحساسه ، ودقة شعوره :

تقول إذا دارأت لها وضيئي

أهذا دينه وديني ؟

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقي على وما يقيني ؟

وأشار الدكتور طه حسين إلى أنها من أروع ما قال الناس ، لافي اللغة العربية وحدها ، بل في غيرها من اللغات (٢) .

وهو القائل في مكر الأقدار بالناس وجهلهم بما تضمرة لهم :

وما أدري إذا يممت وجهها

أريد الخير أيهما يليني

أأخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني ؟

١- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

٢- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

ألا تكفى كل هذه النماذج الشعرية - للمثقب العبدى - بما تحويه من سمات فنية ، وخصال خلقية ، في رسم شخصية قوية ، لها خصال بينه ، وشاعرة صادقة ؟

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الدكتور طه نفسه عندما شهد للمثقب بأنه " كان خفيف الروح ، عذب الحديث ، قوى النفس ، شديد الحزم ، يكاد ينتهي إلى شيء من الغلظة ، رقيق القلب مع ذلك يكاد يذوب رقة ولينا " (١).

فهو يؤكد تفرد المثقب بشخصية قوية ، لها سمات خاصة ، تميزه عن غيره ، كما أنه أشاد به في موضع آخر يقول فيه " ويعجبنى أن أقف عند هذا الشعر الذي بقى وثبت ، واكره الرأاة على رؤايتيه والشرح على شرحه وتفسيره ، وأتاح للغويين وأصحاب النحو أن يستنبطوا فيه كلمات كانوا يجهلونها ، ومذاهب في النحو لعلمهم لم يكونوا ليهتدوا إليها " (٢).

وفي هذا ما يؤكد وضوح شخصية المثقب وقوتها في شعره ، وإلا فكيف توافرت لهذا الشعر كل هذه القومات من القوة والشموخ ، حتى بقى ثابتا ، واستطاع أن يكره الرأاة على رؤايتيه ، والشرح على تفسيره ، ولم تتوفر فيه سمات الشخصية البينة ، رغم أنه ترجمة عنها ، وصدى لأنفاسها ؟!

### ٣ . المقدمة :

اتسمت القصيدة في بدايتها بنج فنى جديد - بالنسبة لعصرهم وهونهج الواج إلى لب الموضوع مباشرة دون التمهد له بمقدمة طلييلة معهودة ، يتباكى أصحابها من خلال على ما بقى في قلوبهم من طيب ذكرياتهم المنصرمة ، وحرارة

١- المرجع السابق ١ / ١٦٥ - ١٦٦ .

٢- المرجع السابق ١ / ١٦٥ .

الشوق لاسترجاع عبق أريجها ، وهو ما درج عليه شعراء عصرها ، واعتبروه شرطاً لازماً لتوافر عناصر القوة والإجادة في تدبيح القصائد الحسنة إلا أن المتقرب العبدى في مقدمة هذه القصيدة خالف هذا النهج وقصد إلى لب موضوعه مباشرة دون تمهيد أو تقديم ، فخطب صاحبه مباشرة في مطلع قصيدته قائلاً :

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنحك ما سألت كأن تبينى

والناظر في هذا المطلع يتجلى له مرجع الأمر في قصد الشاعر إلى هذا النهج .

### ويتمثل في سببين رئيسيين :

**أولهما :** شدة حبه وشغفه بمحبوبته ، فهو مَعْنِيٌ بحبها في المقام الأول وقبل كل شيء فكان اهتمامه أولاً ببيت أشواقه ونجواه لقلبها حتى يستميله فتعدل عن عزمها في الارتحال .

**وثانيها :** ضيق المقام المفروض على الشاعر نتيجة لشرع صاحبه في الارتجال الفعلي مع صوحيباتها ، مما دفع به إلى سرعة مخاطبتها مباشرة دون تريث أو إبطاء حتى يثنيها عن عزمها ، تدل عن ارتحالها وتعاوده بوصلها وودها من جديد ، وبخاصة بعد أن راح يغنيها كل هذه المواقف الفخرية التي تجعله خليقاً بحبها وأهلاً لوصولها وودها حتى لا تردد في مواصلة عهدتها معه .

### ٤ . الوحدة :

استطاع العبدى أن يوفر لهذه القصيدة عديداً من الوحدات الفنية التي تساعد على إبراز أواصر الصلة بين ابياتها ، فوفر لها الوحدة الشعورية وتمثل في

هذا الشعور الفخري المفعم بالصبوة والفحولة والاعتزاز، والمخيم على جميع أبيات القصيدة حتى لنكاد نستشعره؛ في كل كلمة منها، والمتفجر في قلب الشاعر نتيجة لعدول صاحبته عنه بوصولها وحبها، مما آثار كوا من الفحولة والحمية في نفسه، وبخاصة وهو العربي الأدبي الذي يتمتع بكل هذه الخصال التي تشهد على صبوته وفحولته، كما وفر لها الوحدة الفكرية وتتمثل في وحدة الهدف أو الغرض الذي قصد إليه الشاعر من وراء نظمة لأبيات هذه القصيدة بنهجها المنظومة فيه، متمثلاً في استمالة قلبها حتى تعدل عن ارتحالها وتعاوده وودها من جديد، ومن ثم فقد هداه فكره، إلى استعراض كل هذه المفاخر أمامها - بداية من مخاطبته لها بتلك اللهجة الأمرية التي تعلوها نبرة العزة والكبرياء، ثم باستعراضه لكامل سيطرته وتمكنه من ناقته التي تمتلك كل هذا القدر من مظاهر القوة والصلابة، ثم باستعراضه لطبيعة علاقته بعمر بن هند والتي تعلوها الندية والاعتداد بالنفس - حتى يكشف لها عن مكانته التي تجعله خليقاً بحبها، فتعاوده بوصولها وودها، كما وفر لها الوحدة الفنية وتتمثل في وحدة الطابع اللغوي والأسلوبي المخيم على أبيات القصيدة، هذا بالإضافة إلى وحدتي الوزن والقافية .

وهكذا تنطوى القصيدة على عدة وحدات فنية تقوى أوأصر الصلة بين أبياتها بصورة تبيح للناظر فيها أن يحكم عليها بتوفر الوحدة العضوية فيها بقدر ما توافرها من وحدات ( كالوحدة الشعورية، والوحدة الفكرية، والوحدة الفنية، ووحدتي الوزن والقافية ) .

ولعل هذا الرأي لا يوافق كثيراً ممن يجردون الشعر الغنائي من الوحدة العضوية نظراً لتداعي أفكاره وتوارد خواطره على مخيلة الشاعر في غير ترتيب مسبق أو إحكام بنائي مقصود، إلا أن الحقيقة الثابتة - والتي لا جدال فيها -

أن الوحدة العضوية عبارة عن مزيج منصهر من تلك الوحدات السابقة في بوتقة واحدة ، بحيث تمثل كل وحدة منها رافداً من روافد الوحدة العضوية ، ولا يمكن لأي عمل أدبي - مهما يكون نوعه - أن يكون خالياً من كل هذه الوحدات ، وإنما الأصوب أن نحكم بتحقيق الوحدة العضوية في العمل الأدبي بقدر ما توافر فيه من الوحدات المكونة لها .

## ٥ . اللغة والصياغة :

اتسمت القصيدة في لغتها بالتنقل بين السهولة والوضوح تارة ، وبين القوة والغموض تارة أخرى ، فأحياناً تنساب من جداول ألفاظه كلمات تتسم بالرقّة والوضوح فتكشف عن مضمونها في سهولة ويسر دون معاناة أو تكلف نحو ( متعيني ، تديني ، غزلان ، الدانيات من الغصون ، الدياج ، البشر المصون ) .

وتارة تنطلق كلماته غامضة تحتاج إلى مزيد من الجهد للوقوف على معناها نحو الوساوص ، والسناف ، والتقنات " وما يترأى لنا أحياناً من صعوبة متابعة الشعر لا يرجع إلى عمقه أو فلسفته بقدر ما يرجع إلى غرابة ألفاظه علينا في هذا العصر ، ووضوح الشعر الجاهلي بصفة عامة أو غالبه تفسره طبيعة الحياة الجاهلية نفسها ، الحياة البسيطة غير المركبة ، الواضحة غير المعقدة ، حياة الصحراء الواسعة التي ينطلق فيها الإنسان " (١) .

وقد اعتمد الشاعر في قصيدته على عديد من الأساليب الفنية التي تشهد على براعته الشعرية ، كالترخيم في قوله :

١- الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية د / بهي الدين زيان ص ١٥٠ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢ م .

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنعك ما سألت كأن تبيني

والترخيم في اللغة التليين ، ومنه الترخيم في الأسماء ، لأنهم إنما يحذفون  
أواخرها ليسهلوا النطق بها " (١) .

والترخيم عند المثقوب لا يقف عند حدود الإحساس بالقرب أو الاحتضان  
فحسب ، بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة النفسية لدى الشاعر وما يقتضيه  
الحال، وذلك كقوله السابق : إذ جاء النداء في قوله " أفاطم " بالهمزة وهي لنداء  
القريب ، فهي حاضره في قلبه ، قريبة من روجه ، وإمعاناً في هذا القرب - وكأنما  
قد احتضنها بقلبه وروحه - رخم باسمها " فاطمة " فحذف آخره فجاء البناء "   
أفاطم " بالترخيم والنداء بالهمزة خير شاهد على مكانة هذه المحبوبة في قلبه كما  
جاء الترخيم هنا موافقاً لمقتضى الحال إذ وجد الشاعر صاحبتة التي ملكت عليه  
قلبه قد تاهبت للرحيل فأراد مخاطبتها في عجلة قبل رحيلها ، فكان الترخيم خير  
معين له نظراً لضيق المقام .

ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها الشاعر في قصيدته الطباق ، وذلك في قوله :

فإني لو تخالفني شمالي

خلافك ما وصلت بها يميني

إذ طابق الشاعر بين الجهتين " اليمين " و " الشمال " لما بينهما من تضاد .

ومن أمثلة ذلك قوله أيضاً :

فإما أن تكون أخي بحق

فاعرف منك غثى من سميني

١ - لسان العرب مادة رخم .

والإفاطر حنى واتخذني

عدواً أتقيك وتتقيني

إذ جاء مطابقاً في البيت الأول بين اسمين " الغث والسمين " ، وهما من الصفات الحسية ، على حين طابق في البيت الثاني بين فعلين " اطرحنى واتخذني " .  
ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها أيضاً في قصيدته الاستفهام ، وذلك كقوله :

لمن ظعن تطالع من ضبيب

فما خرجت من الوادي لحين ؟

تبصر هلى ترى ظعناً عجلاً

بجنب الصححان إلى الوجين ؟

إذ شخص الشاعر من نفسه شخصاً آخر - على سبيل التجريد - وتوجه إليه مخاطباً في الأسلوب الاستفهامي ، والاستفهام هنا يكشف أبعاد تلك الحالة النفسية التي تكتنف الشاعر ، إذ توجه إلى متسائلاً لمن هذا الظعن وهو يعلم أنه لصاحبه ، وكأنما يمنى نفسه أن يكون هذا الظعن لشخص آخر ، فلا تقوى نفسه على تحمل الحقيقة ، وهي ظعن المحبوبة .

وفي قوله " تبصر هل ترى ظعناً " يبين أن عينيه لا تقوى على المشاهدة بنفسها من شدة دموعها المنهمرة ، فيتوجه إلى صاحبة متلمساً منه أن ينظر نيابة عنه ، حتى يمتعه بحديثه عنها .

ومن استفهاماته أيضاً قوله يتحدث على لسان ناqqته :

تقول إذا درأت لها وضيبي

أهذا دينه أبداً وديني ؟

وقد يأتي باستفهامين في بيت واحد كقوله :

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقي على وما يقيني ؟

والاستفهام هنا معناه التعجب والتقريع ، وكرر الاستفهام مبالغة في

التعجب كما يوميء هذا الاستفهام إلى عدة إشارات منها :

١. دقة ورهافة حسه إذا استطاع أن ينفذ إلى بواطن ناقلته ويستشعر وجدانها بهذا القول .

٢. شعور المثقوب بظلمه لناقلته وإثقاله عليها في رحلاته ، حتى أنها لو قدر لها أن تتكلم لأعربت عن شكواه بهذا القول ، وفي هذا مظهر من مظاهرها اهتمامه بها وحبها لها .

٣. إحساس المثقوب بالضيق والملل من كثرة ترحاله ، فعبر عن إحساسه هذا على لسان ناقلته حرصاً منه على مظهره؛ أما صاحبه .

هذا وقد حوت القصيدة عديداً من الصور الفنية التي تشهد على اقتدار صاحبها وتمكنه من أدوات فنّه ، ومن تلك الصور قوله :

يجذ تنفس الصعداء منها

قوى النسع المحرم ذي المتون

تصاك الجانبيين بمشفترا

له صوت أبح من الرنين

كأن نفى ما تنفى يداها

قذاف غريبة بيدي معين

وهي صورةٌ كلبية تكشف عن قوة ناقلته وشدتها، وتتكون من ثلاث صور جزئية تمثل كل واحدة منها في بيت مستقل، وتتضافر فيما بينها لتعطي مشهداً متكاملًا ينطق بالقوة والنشاط من جميع جوانبه .

**ففي البيت الأول** يصور الشاعر قوة ناقلته وشدتها عند تنفسها حتى أنها لتكاد من شدة تنفسها واتساع صدرها أن تقطع سير الرحل عند التنفس، وهي صور حسية بصرية مفعمة بالحركة تعتمد على خيال بسيط استمد رؤاؤها من واقعه المشاهد .

**وفي البيت الثاني** يصور الشاعر قوة ناقلته وشدتها من زاوية أخرى يعكس فيها سرعة ناقلته وشدته عدوها، حتى أنها من فرط سرعتها تقذف جانبيها ببعض الحصى المتطاير من وقع نغماته دوى الرنين بل هو أقوى، وهي صورة حسية بصرية مفعمة بالحركة أيضاً تعتمد على خيال خصب بسيط يستجلب رؤاؤها من واقعه المشاهد ويعاود تركيبها أو رسم معالمها بعد إعمال خياله فيها .

**وفي البيت الثالث** يصور الشاعر قوة ناقلته وشدتها من زاوية جديدة، يعكس من خلالها شدة سرعة ناقلته وشدته صلابتها في عدوها، حتى أنها من شدة وقع قدمها على الأرض في عدوها تطحن ما يقع تحت قدمها من حصى فيبدو دقيقاً في صغره؛ وكأنه طحين منبعت من بين شقى رحي قوية سريعة الدوران، وهي صورة حركية تعتمد على الحسن في إدراكها، أعمل فيها الشاعر خياله إلى حد بعيد حتى استطاع أن يأتي بها على هذه الشاكلة المفعمة بالحركة والنشاط من جميع جوانبها .

وهكذا استطاع الشاعر أن يجاور بين هذه الصور الجزئية الثلاث في مقدرة فائقة تمكن من خلالها أن يصور مشهداً متكاملًا يوج بالحركة من جميع جوانبه.

ومن بديع صور، أيضاً قوله يصور سرعة ناقته :

فسل الهم هنك بذات لوث

عذافرة كمطرقة القيون

بصادقة الوجيف كأن هراً

يباريها ويأخذ بالوضين

فها هو ذا يجمع بين صورتين أحدهما ساكنة يدعوفيهما نفسه إلى إزاحة الهم عنه باستطانه لناقته القوية الصلبة التي تشبه فيها صلابتها وشدتها مطرقة الحدادين ، والثانية متحركة يصور فيها سرعة ناقته العاتية واستمرارها وكأن هراً معلقاً بجانبها ينهشها بأنيابها ومخالبه فتجد في عدوها للفرار من شراسته ، وهما صورتان حسيّتان اعتمد الشاعر في استجلاب رؤا فدها على واقعه المشاهد بعد إعماله لخيال خصيب وبخاصة في صورته الثانية التي جاءت مشعة بالنشاط والحركة من جميع جوانبها .

## ٦ . الموسيقى :

وقد اختار الشاعر لقصيدته بحر الوافر ، وتفعيلاته ( مفاعلتن مفاعلتن مفاعل ) في كل شطر ، وهو من البحور اللينة الطيعة يشتد إذا شددته ويرق إذا رققته ، وأكثر ما يوجد به النظم في الفخر ،<sup>(١)</sup> ومن ثم فهو بحر يتواءم مع عاطفة الشاعر الجياشة والمفعمة بمشاعر الصبوة والفعولة والاعتزاز .

كما اتخذ الشاعر من حرف النون المكسورة رياء لقصيدته ، وقد اعقبها بياء وصل ممدودة حتى يتيح لنفسه مساحات رحبة تعينه في التنفيس عما بداخله من

١ - انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٩٣/١ تحقيق أ / أحمد محمد شاكر ط٢ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢ م .

جيشان مشاعر الصبوة والكبرياء ، وبذلك تتواءم القافية مع الوزن في إيجاد مناخ ملائم لعاطفة الشاعر وعمق تجربته ، وبهذا الوزن والقافية تمتعت القصيدة بنبرة موسيقية عالية الجرس ، واضحة الرنين ، اعلت من قدر شاعرنا ومكنت لشعره وشاعريته في قلوب السامعين ، مما دفع بأي عمر بن العلاء بتعقيبه على هذه القصيدة بعد سماعها واستحسانها بقوله مادحا : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " هذا بالإضافة إلى إنها حظيت بتعليقات كثيرة من قبل الأدباء والنقاد ، حتى ورد ذكرها في أكثر من أربعين مصدراً .